من آيات الله

فى الأرض

قال تعالى فى سورة طه: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٣-٥٥].

إن الله خالق الأرض، وخالق الناس هو الذى مكن لهذا الجنس البشرى فى الأرض، وهو الذى أودع الأرض الخصائص والموافقات الكثيرة التى تسمح بحياة الجنس البشرى، بما فيها من أسباب الرزق والمعايش، هو الذى جعلها مقرّاً صالحاً لنشأته بجوها وتركيبها وحجمها وبعدها عن الشمس والقمر، ودورتها حول الشمس، وميلها عن محورها، وسرعة دورانها إلى آخر هذه الموافقات التى تسمح بحياة البشر عليها، وهو الذى أودع من الأقوات والأرزاق ومن القوى والطاقات، ما يسمح بنشأة هذا الجنس وبنمو هذه الحياة ورقيها معاً.

والله سبحانه وتعالى جعل الأرض كلها مهداً للبشر فى كل زمان ومكان، وهى ممهدة لهم كذلك: للسير، والحرث، والزرع، والحياة، جعلها الخالق المدبر كذلك يوم أعطى كل شئ خَلْقَهُ. فأعطى هذه الأرض خلقها على الهيئة التى خلقت بها صالحة للحياة التى قدرها فيها، وأعطى البشر خلقهم كذلك على الهيئة التى خلقهم بها صالحين للحياة فى هذه الأرض التى مهدها لهم وجعلها مهدهم.

قال تعالى فى سورة الحجر: ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ١٩-٢١].

وقال تعالى فى سورة فصلت: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ [فصلت: ١٠].

وقال تعالى فى سورة لقمان: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان: ١٠-١١].

والخالق المدبر الذى جعل الأرض مهداً، شق للبشر فيها طرقاً، وأنزل من السماء ماءً، ومن ماء المطر تتكون الأنهار وتفيض. ﴿وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى﴾ أى أخرج الله بهذا الماء عالم النبات كله من حشائش وزروع، وأشجار وهو عالم متزاوج كعالم الحيوان، والإنسان، فيقوم التوالد فيه كما يقوم فى عالم الإنسان والحيوان باللقاح بين الذكر والأنثى.

فقد شاء الله الخالق المدبر أن يكون النبات أزواجاً كسائر الأحياء، وهى ظاهرة مطردة فى الأحياء كلها. والنبات فى الغالب يحمل خلايا التذكير، وخلايا التأنيث فى النبتة الواحدة، وأحياناً يكون اللقاح فى نبتة ذكر منفردة كما هو الحال فى الفصائل الحيوانية، وبذلك يتم التناسق فى نواميس الحياة، ويطرد فى كل الفصائل والأنواع، قال تعالى فى سورة الشعراء: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٧-٨].

وقال تعالى فى سورة الأنعام: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ [الأنعام: ٩٩].

فالله سبحانه وتعالى أخرج بهذا الماء أنواع النباتات من زروع وثمار، ومن حامض وحلو، ومر، بعضها للناس، وبعضها للبهائم التى تخدم الإنسان، والتى كثير من علفها هو مما يفضل عن حاجة الإنسان مما لا يقدر الإنسان على أكله. وفى اختلاف منافع النباتات المختلفة واختلاف لونها ورائحتها وشكلها، بما يخدم مصالح الإنسان، دليل على أن هناك ذاتاً هى التى سخرت كل شئ فى هذه الأرض لصالح الإنسان.

ولا شك أن فى مشاهد الحياة المتفتحة فى جنبات الأرض ينبه القرآن الكريم إلى صفحة الكون المنظور، لنشهد بديع صنع الله فى الماء والإنبات والإثمار فى شتى أنواعها، وشتى أشكالها، وشتى أطوارها، وليلمس الوجدان ما فيها من حياة نامية، دالة على القدرة التى تبدع الحياة.

ومنظر الحدائق على الأرض، يبعث فى القلوب السرور والحيوية قال تعالى فى سورة النمل: ﴿**وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ**﴾ [النمل: ٦٠] فتأمل الحدائق البهيجة كفيل بإحياء القلوب. وتدبر آثار الإبداع كفيل بتمجيد الصانع الذى أبدع.

والمتأملون فيما جعل الله الأرض عليه من المهد والطرق السهلة، وما أنبت فى الأرض من النبات لا يكتفون بفتح أبصارهم وبصائرهم للنظر، والتدبر، والاستدلال فحسب، بل يعبرون عن إحساسهم بالحق.

وقد كثرت فى القرآن الكريم الآيات التى تخاطب الإنسان وتدعوه أن يوجه نظره إلى خالق هذا الكون قال تعالى فى سورة يونس: ﴿**قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ**﴾ [يونس: ١٠١].

والمؤمنون بالله أصحاب العقول الراجحة هم الذين تتفتح قلوبهم لآيات الله المبثوثة فى تضاعيف الأرض والسماء. وحيثما مد الإنسان بصره، وجد آيات الله تطالعه، وكلها تعلن عن نفسها فيستشعرها القلب المؤمن، قال تعالى فى سورة الذاريات: ﴿**وفى الأرض آيات للموقنين**﴾ أى كما يقول علماء التفسير: فيها دلائل أو وجوه دلالات تدل على وجود الخالق الذى جعلها مهداً.

قال تعالى: ﴿**الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ**﴾ [طه: ٥٣-٥٤].

فأنت ترى أن الآية الكريمة ذكرت آيات تدل على الخالق المدبر، وخُتمت بقوله تعالى: ﴿**إن فى ذلك لآيات لأولى النهى**﴾ أى لذوى العقول. والنهى جمع

نهية. وإنما سمى العقل نهية إما لأنه ينهى عن المحظور ، أو لأن الأمور ينتهى بها إليه.

ثم بعد ذلك أخبرنا رب العزة أن هذه الأرض التى جعلها لنا مهداً، وسلك لنا فيها سبلاً، وأنزل عليها من السماء ماءً، وأنبت به أزواجاً من نبات شتى، للأكل والمرعى، هذه الأرض بالنسبة للإنسان منها المبدأ وإليها المصير.

فالإنسان مخلوق من مادة هذه الأرض، عناصر جسمه كلها من عناصرها إجمالاً ومن زرعها يأكل، ومن مائها يشرب، ومن هوائها يتنفسُ، وهو ابنها، وهى له مهد، وإليها يعود جثة تطويها الأرض، ورفاتاً يختلط بترابها، وغازاً يختلط بهوائها. ومنها يبعث إلى الحياة الأخرى، كما خلق فى النشأة الأولى.

قال تعالى: ﴿**منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى**﴾ والمراد بإخراجهم أن يؤلف أجزاءهم المتفرقة المختلطة بالتراب، ويردهم كما كانوا أحياء ويخرجهم إلى المحشر.

فأنت ترى أن فى الأرض آيات حيث جعلها الله للبشر فراشاً ومهاداً يتقلبون عليها، وسوى لهم فيها مسالك يترددون فيها كيف شاءوا، وأنبت فيها أصناف النبات، التى منها أقواتهم، وعلوفات بهائمهم، وهى أصلهم الذى منه تفرعوا، وأمُّهم التى منها ولدوا، وهى التى تضمهم إذا ماتوا.

فهل يكون ذلك إلا بالله، ومن الله.

* * *